أهمية
الحوار والمناظرة في الإسلام

د/ أحمد فهمي علي محمد

رئيس قسم العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣)

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(٢) سورة النساء الآية الأولى.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٧٠-٧١.

ثم أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى سيدنا محمد -ﷺ-. وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين. اللهم فقهنا فى الدين وعلمنا التأويل يا رب العالمين. ونسألك أن تصلى وأن تسلم على سيدنا ومولانا رسول الله محمد- عليه الصلاة والسلام-، وعلى آله وأصحابه الذين ترسموا هداه واقتفوا أثره واتبعوا منهجه وعملوا بسنته ، فرضى الله عنهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد خلق الله الإنسان وفضله على سائر الكائنات بالعقل الذى هو أساس التفكير، وجعله مناط التكليف، ولهذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام "من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين".[1] والتفقه فى الدين يكون بحسن فهم نصوصه وتدبر معانيه تدبراً يحيى موات القلوب ويشرح الصدور، ويعين على أداء العمل ويجعل من المسلم نموذجاً يحتذى به وقدوة يقتدى بها.

ولهذا فقد أطلق الإسلام العقول من أغلال الوثنية، وفتح لها باب الحرية والتفكير: التفكير فى الكون، التفكير فى العقيدة، التفكير فى القرآن- وفتح الإسلام لأتباعه ومعتنقيه باب الحرية وتبادل الآراء

---

(١) فتح البارى لابن حجر العسقلانى جـ١ ص١٧٣.

والحـوار ذلك لأن المجتمع لم ولن يبنى بناء قويا إلا على أساس متين مـن الديـن هذا ولما كان للحوار الأثر القوى فى بناء الإنسان وتقوية شخصـيته، واسـتنارة عقلـه وصقل ثقافته وتصحيح المفاهيم التى قد يفهمهـا الإنسـان خطأ فقد اتخذ الإسلام الحوار وسيلة من أهم الوسائل التى استعملها لإقناع الناس بمبادئه وعقيدته وأحكامه وتشريعاته.

وإذا تأملـنا أسلوب القرآن الكريم وجدنا أنه قد اشتمل على الحوار الهـادئ والمجادلـة بالحسـنى، ومناقشة القرآن لأهل الكتاب بأسلوب الحوار الهادئ المقنع، ولا عجب فى ذلك فالقرآن هو كتاب الله الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١)

ولقد جاء الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه فاستعمل الحوار وسـيلة مـن وسائل الدعوة للوصول إلى الحق وبيانه، ولم لا والله عز وجـل قـد أمره بأن يتخذ الجدل بالحسنى أساساً من الأسس التى تقوم علـيها دعوتـه، يقـول الله تعـالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢)

لهـذا كـان اختـيارنا لموضـوع هـذا البحث هو "أهمية الحوار والمناظرة فى الإسلام" لنـتعرف من خلاله على مفهوم كل من الحوار والمـناظرة وأثـر ذلـك فى النفوس والشروط التى يجب أن يتحلى بها

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٢) سورة النحل الآية ١٢٥.

الحـــوار حتى يكون هادفاً وبناءاً، مستدلين على ذلك بنماذج ممن ذكرهم الله تعـالى فـى كتابه الكريم الذى اشتمل على الحوار المقنع الذى يلزم الخصـم بالحجـة والمنطق السليم. هذا ما قصدته من البحث راجياً الله تعـالى أن يستحوذ على القبول والرضا، وأن ينفع به قارئه وكاتبه وأن يكـون هذا فى ميزان حسناتنا يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المؤلف

أ.د/ أحمد فهمي على محمد

مفهوم الحوار والمناظرة

أولا: مفهوم الحوار:

يقول ابن منظور: الحوار من المحاورة أى المجاوبة. والتحاور والتجاوب يقال: كلمته فما رد إلا حواراً أى جواباً، وهم يتحاورون أى يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.(١)

وأطلق صاحب كتاب الطراز على جنس الحوار مصطلح "الترجيع في المحاورة والترجيع تفعيل من قولك رجعت الشئ إذا رددته، ويسمى الترجيع ترجيعا وهو ما يخرج من بطن ابن آدم لأنه يتردد فيه، ويقال للسماء ذات الرجع لأن المطر يتردد فى نزوله منها.(٢)

مفهوم الحوار اصطلاحاً:

يعرف الحوار في اصطلاح علماء البيان بأنه عبارة عن أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة جرت بينه وبين غيره أوجز عبارة وأقصر لفظاً، فينزل في البلاغة أحسن المنازل وأعجب المواقع، ومن جيد ما قيل:

بت أسقيه صفوة الراح حتى
وضع الكأس مائلا يتكفا

---

(١) انظر : لسان العرب – لابن منظور – مادة حور ، ط/ دار المعارف.
(٢) كتاب الطراز – يحي بن حمزة العلوى ، جـ ٣ صـ ١٥١ ط/ القاهرة.

قلـــت: عـــبدالعزيز تفديـــك نفســـي

قـــال: لبـــيك. قلـــت: لبـــيك ألفـــا

هاكهـــا قـــال: هاتهـــا قلـــت: خذهـــا

قـــال: لا أســـتطيعها ثـــم أعفـــى

فهـــذا ومـــا شاكله من جيد ما يؤثر في المحاورة، وترجيع الخطاب على جهة الاستعطاف والملاطفة.(١)

حول معنى الجدل:

الجـــدل يقصد به في القرآن الكريم الحوار الهادف إلى إيضاح الحق واســـتظهاره وإلـــزام الخصـــم عن طريق المجادلة بالحسنى، ولذلك قيد القـــرآن الكـــريم الجـــدل بالحســـنى عـــند خطاب الله لرسوله-ﷺ- ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢)

فهو إذا مقيد في البداية والنهاية بهدفين نبيلين، فهو مقيد في الغاية بأن يكون الحق غايته، وهو مقيد فى الوسيلة بأن تكون بالحسنى.

يقول ابن جرير: هو ما أنزله الله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحســـنة. أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بـــأس الله تعالى، وقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) أى من احتاج منهم إلـــى مـــناظرة وجـــدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب

---

(١) الحـــوار والمـــناظرة فـــي القـــرآن الكـــريم -د/ خلـــيل عبدالمجـــيد -صـــ ١٥ ط / دار المنار.

(٢) الحوار والجدل فى القرآن الكريم للشيخ / خلف محمد الحسيني -صـــ ٤١ وما بعدها.

كقوله تعالى:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون – عليهما السلام – حين بعثهما إلى فرعون وعلى هذا الأساس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها.

فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها.

والجدل بالحسنى هو الذى يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر.[1]

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن الكريم – سيد قطب – جـ ٤ صـ ٢٢٠١ وما بعدها.

ثانياً : مفهوم المناظـــرة

تعريف المناظرة لغـة:

قيل: إن المناظرة مأخوذة من النظر بمعنى الإبصار، وفي هذا إشارة إلـى أن الأولى حضور المتناظرين في مجلس واحد يُنظر كل منهما إلى الآخـر فـلا يعـرض عن صاحبه، ولا يتكبر عليه لأن مثل هذه الأمور تغضب الخصم وتسد مآخذ التفكير عليه.

يقول ابن منظور: والمناظرة لفظاً أن تناظر أخاك فى أمر إذ نظرتما فـيه معـا كـيف تأتيانه، والتناظر: التراوض في الأمر، ونظيرك الذى يراوضك وتناظره.(١)

وقـيل: إنهـا مأخوذة من النظير بمعنى إن الأمر الذى يتنازعان في إثـباته واحد. فمثلا العالم هو موضوع التنازع بين المتكلم والفيلسوف، فـالأول يقـول بحدوثـه، والثانـي يقول بقدمه، وفي هذا إيماء إلى أن المتناظريـن متكافـئان أو مـتقاربان، فلا يكون أحدهما فى غاية العلو والكمال والآخر في نهاية الدناءة والنقص.

وقـيل: إنها من النظر بمعنى الفكر والتأمل، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغـي للمناظر أن لا يسرع إلى القول قبل التأمل، فإن القول بعد التأمل يكون منسقاً ومرتباً.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ـ مادة "نظر".

وقيل: إنها مأخوذة من الانتظار، وفيه إشارة إلى أنه يجب أن ينتظر أحد المتخاصمين إلى أن يتم للآخر كلامه.[1]

تعريف المناظرة في الاصطلاح:

للعلمـــاء فـــى تعريف المناظرة اصطلاحا تعريفات متعددة نذكر منها ما يلي:

أولاً : قـيل فـيها بأنها توجه المتخاصمين فى النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب.

ولبـيان ذلـك نقـول: توجـه، معناه التفات المتناظرين إلى المعنى المتـنازع فـيه "المتخاصـمين" المراد بالتخاصم هو التخاصم في الرأى بحيث يثبت أحدهما شيئاً وينفيه الآخر، كالنزاع بين المتكلمين والفلاسفة في قدم العالم وحدوثه.

"فـي النسـبة" أى النسـبة الخبرية التى تحتمل الصدق والكذب، أو النسبة الحكمية التامة الحاصلة بين الطرفين.

"بين الشيئين" المحكوم عليه، والمحكوم به، أو المقدم والتالى.

"إظهـارا للصـواب" احـترز بذلك عن علم الجدل لأن المجادل يدفع الخصـم بالشـبهة لا بالحجـة، والغـرض من الجدل الإلزام أو الإفحام القاصر، بخلاف المناظرة فالغرض منها إظهار الحق والصواب، وإن كان لا يشـترط الوصـول إلـى الصـواب بـالفعل، بل المهم أن يكون قصد

---

(١) دراسات في مناهج البحث والمناظرة ـ صـ ١٥٦

المتناظرين الوصول إلى اعتقاد الصواب وإن لم يصل أحدهما إلى صواب في الواقع.

وهذا التعريف جمع العلل الأربع للمناظرة وهي:

١- العلة الصورية (وهي التوجه)

٢- العلة الفاعلية (وهي المتخاصمان)

٣- العلة المادية (وهي النسبة الخبرية)

٤- العلة الغائية (وهي إظهار الصواب)

ثانياً : وقيل في تعريفها: المناظرات نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل حول مسائل عقيدية، ومن أشهر المحاورات حول العشق تلك التي كانت تجري أمام يحي البرمكي، وقد تأثر فيها المتحاورون بمأدبة أفلاطون التي تحاور فيها سقراط وبعض المتفلسفة في عاطفة الحب، والمناظرة الحادة التي قامت بين السيرافي ومتى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني.[1]

ما تجري فيه المناظرة وما لا تجري فيه:

أولاً : الأمور التي تجري فيها المناظرة:

١- مقدمة الدليل سواء كانت مذكورة صراحة أو ضمنا.

٢- سند المنع لأنه يعتبر كالدليل.

---

(١) معجم مصطلحات الأدب- مجدى وهبة- صـ ٩٠ وما بعدها -ط/ بيروت ١٩٧٤م.

٣- الدليل سواء كان عقلياً أو نقلياً والتزمه ناقله.

٤- الدعوى الصريحة.

٥- حكاية النقل سواء كان المقول خبراً أو انشاءاً.

٦- التعريف لأنه يشتمل على نسبة ودعاوى ضمنية.

٧- التقسيم لأن كل تقسيم مشتمل على نسبة خبرية هى أن هذه لها، أو إن هذا ينقسم لتلك الأجزاء أو الأنواع دون غيرها.

٨- العبارة تتوجه عليها المناظرة إذا كانت مخالفة لقوانين العربية كالنحو والصرف واللغة.[١]

ثانياً: الأمور التى لا تجرى فيها المناظرة وهى:-

أ- المفرد: لأنه لا يحتوى على نسبة خبرية تتوجه عليها المناظرة.

ب-الإنشاء: سواء كان طلبياً أو غير طلبى، نعم إن لوحظت النسب الخبرية التى تضمنها الإنشاء توجهت المناظرة على هذه النسب لا على الإنشاء نفسه، وذلك كما لو وجدت رجلاً معتكفاً فى المسجد فقلت له لا تعتكف وأنت محدث، فإنه وإن كان إنشاء بصيغة النهى إلا أنه تضمن هذه النسب. أنت محدث وأنت معتكف ولا يجوز الاعتكاف للمحدث، وللخصم أن يمنع إحدى هذه النسب.

---

(١) دراسات فى مناهج البحث والمناظرة صـ١٥٣.

ج-المركب الناقص، لأنه لا نسبة فيه توصف بالمطابقة ولا بعدمها نحو غلام زيد، وإن قام محمد.

شروط المناظرة:

يشترط فى المناظرة عدة شروط أهمها:-

١- أن يكون المتناظران على علم بقوانين المناظرة وأبعادها.

٢- أن يكون موضع البحث نظرياً مجهولاً أو بديهياً خفياً.

٣- أن يسلك المتناظرات الدليل اليقينى فى الأبحاث اليقينية، والظن فيما يكفى فيه الظن كالأحكام الفرعية الفقهية.

٤- أن يكون الإيجاب والسلب واردين على موضع واحد وفى اصطلاح واحد، فلا يجوز أن يكون السؤال جارياً على اصطلاح أو مذهب، والجواب على اصطلاح آخر ومذهب آخر.(١)

آداب المناظرة:-

للمناظرة آداب يجب أن يتحلى بها المتناظرين ومن أهمها ما يلى:-

١- تكافؤ المتناظرين أو تقاربهما على الأقل ثقافة وعقلاً، فلا يصح التناظر بين مثقف ذكى وغبى جاهل.

٢- تقابل المتناظرين فى المجلس ليشعر كل منهما باحترام الآخر له.

٣- انتظار كل منهما الآخر حتى يفرغ من كلامه، يؤيد ذلك موقف

---

(١) رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة-محيى الدين عبدالحميد صـ ٥٧ وما بعدها.

الرسول -ﷺ- من عقبة بن ربيعة حيث قال عقبة لرسول الله -ﷺ-: يـا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسـباً، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وعبت به آلهتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها، إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد بهذا الأمر ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الـذى يأتيك رئياً تراه ولا تستطيع أن تدفعه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا لك فيه أموالنا حتى تبرأ. فقال رسول الله-ﷺ-: قد فرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم. قال -ﷺ- فاسمع منى وتلا عليه أول سورة فصلت، ثم مضى رسول الله -ﷺ- فيها وهو يقـرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها ألقى يده خلف ظهره معـتمداً علـيها يستمع منه حتى انتهى رسول الله -ﷺ- إلى السـجدة منها فسجد ثم قال: " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنـت وذاك" فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟. قال ورائى إنى سمعت قولاً والله مـا سـمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا

بالكهانـــة، يـــا معشـــر قريش أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الـــرجل وبيـــن مـــا هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى ســـمعت نـــبا، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علـــى العـــرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قـــالوا ســـحرك والله يـــا أبـــا الوليد بلسانه، قال هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم.(١)

٤- أن يتكلم المناظر فى كل كلام بما يناسبه فلا يتكلم فى اليقين بما يناســـب الظـــن ولا فى الظن بما يناسب اليقين، مثل الحديث فى علـــم الكلام فإنه يجب أن يتكلم فيه باليقينيات المفيدة للاعتقاد، فـــلا يكفـــى فى الاعتقاد الظن كأن يعارض دليلاً قطعيا كالقرآن بأمارة ظنية كالقياس لأنه لا يفيد شيئاً.(٢)

٥- ترك الضحك والقهقهة واللمز وعلو الصوت أثناء المناظرة، لأن هذه من صفات الجهلاء الذين يحاولون ستر جهلهم فربما يغلب جـــاهل يعتمد على صوت قوى عالما فى صوته رقة وعنده أدب وحياء.

٦- الاحـــتراز عن الإيجاز والإطناب، وعن استعمال الألفاظ الغريبة، وعـــن المجمـــل فـــى الكلام، وعن الدخول فى كلام الخصم قبل

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ٤ ص٩١ ط/ مكتبة دار التراث.
(٢) انظر دراسات فى مناهج البحث والمناظرة صـ١٥٩.

فهمه. ولا بأس بالاستفسار وإعادة الكلام إذا طلب أحد المتناظرين ذلك.

٧- قصد كل من المتناظرين إظهار الحق والصواب، ويؤيد هذا المعنى قول الشافعي -رضي الله عنه- ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يظهر الله الحق على يد أحدنا.

أدب الحوار في الإسلام:

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.(١)

هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول -ﷺ- من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فالقرآن الكريم أروع وأبدع واعظم واهم وأفضل كلام نزل على رسول الله -ﷺ-، فقد بلغ أسلوبه ذروة الكمال لأنه معجزة لمن أنزل عليه، لم ينسى القرآن شيئاً مطلقاً مما يتصل بالنفوس وبالعقول وبالقلوب إنه صناعة إلهية خالصة، لم تشبها شائبة من أي عناصر أخرى، إنه يستهوى جميع النفوس، ويأسر جميع القلوب ويستولى على العقول بمجرد سماعه فالكفار

---

(١) سورة الحجرات الآيات ٢-٣.

أنفسهم اعترفوا بذلك، واعترف كذلك الجن.

إن الحق تبارك وتعالى حينما يحث المستمعين إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجه أن يتدبروا القرآن معناه أنه يحب منهم أن يعملوا عقولهم فيما يسمعون، انهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله، وأنه ينطق بكلام حق لا يدخله الباطل أبداً. وذلك كله بأسلوب جذاب أخاذ.

إن الحق -ﷻ- أنزل القرآن معجزة وكتاب منهج، لأن عمر القرآن بالتكليف سيطول إلى أن تقوم الساعة، وجعل الحق المعجزة محفوظة مع المنهج لتكون دلالة على صدق المنهج، فالقرآن قد نزل بأسلوب عربى. وفى أمة عربية ملكتها الفصاحة، إنها أمة كلام وأداء وبيان ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .(١)

ويقول صاحب ظلال القرآن فى مفهوم قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يرسم المولى -ﷻ- منهجا ويخط طريقا للمؤمنين يسيرون عليه مع الرسول الكريم -ﷺ-، مبنى على التعظيم

---

(١) سورة الزمر الآيات ٢٧-٢٨.

والتبجيل والاحترام والتوقير، فليس لهم أن يسبقوه ولا أن يتقدموا عليه في قول ولا فعل ولا يقضوا أمراً قبل الرجوع إليه، ولا يقترحوا عليه شيئاً يفعله بل عليهم أن ينتظروا ويتمهلوا ويتركوا الأمر إليه يصرفه كيف شاء حسبما أراه الله ويكونوا جميعاً تبعاً له في كل الأمور. وقد استجاب المؤمنون لهذا التوجيه الإلهي وتأدبوا مع الرسول -ﷺ-، فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه الرسول أن يدلي به، وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمراً وحكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول -ﷺ-.(١)

وخير شاهد على ذلك ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ -رضي الله عنه- حيث قال له النبي -ﷺ- حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟. قال بكتاب الله، فقال له النبي -ﷺ-: فإن لم تجد؟. قال: بسنة رسول الله -ﷺ-، فقال له النبي -ﷺ-: فإن لم تجد؟. قال: اجتهد رأيي، فضرب رسول الله -ﷺ- في صدره، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله.(٢)

ومن هذا السياق يتضح أن معاذاً أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما

---

(١) في ظلال القرآن الكريم- سيد قطب جـ٦ ص٣٣٣٨.
(٢) الحديث رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجة.

بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله.(١)

وروى البخارى بسنده عن أبى مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر- رضى الله عنهما - رفعا أصواتهما عند النبى -ﷺ- حين قدم عليه ركب بنى تميم، فى السنة التاسعة من الهجرة، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس -رضي الله عنه- أخى بنى مشاجع- ليؤمره عليهم، وأشار الآخر برجل آخر قال نافع لا أحفظ اسمه، وفى رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر-رضى الله عنهما-: ما أردت إلا خلافى. قال عمر: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قال الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله -ﷺ- بعد هذه الآية حتى يستفهمه، وروى عن أبى بكر -رضي الله عنه- أنه قال لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار- يعنى الهمس.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكان قيس بن الشماس رفيع الصوت

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ١ ص٢٠٥.

فقـــال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله -ﷺ- أنا من أهل الـــنار حـــبط عملى وجلس فى أهله حزيناً ففقده رسول الله -ﷺ- ، فـــانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله -ﷺ- مالك؟. قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى -ﷺ- وأجهر له بالقول حـــبط عملـــى أنا من أهل النار. فأتوا النبى -ﷺ- فأخبروه بما قال، فقال النبى -ﷺ-: "لا بل هو من أهل الجنة".(١)

وفـــى تضـــاعيف هذه الآية أدب إلهى أدب الله به المؤمنين، ولقنهم عن طريقه كيفية الحديث مع الرسول الأكرم -ﷺ- وأنه ينبغى لهم أن لا يـــرفعوا أصـــواتهم فوق صوته حينما يحدثونه ويحدثهم بل عليهم أن يكلمـــوه بصوت هادئ أو خفيض لا جلبة فيه ولا ضوضاء ولا غلظة، بل علـــيهم أن يجلـــوه ويوقـــروه فـــى قلوبهم توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ويميز شخص رسول الله بينهم ويميز مجلسه فيهم.(٢)

ونهـــاهم كذلك أن يجهروا لـــه بالقول إذا كلموه أو تحدثوا إليه وهو صـــامت مصـــغ لمـــا يقولون كأنهم يحدث بعضهم بعضا، وليس شخص الرسول -ﷺ-، فإن هذا وذاك سبب لبطلان أعمالهم الصالحة وذهابها

---

(١) رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-.
(٢) أسباب النزول صـ٢٥٨ وانظر فى ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٣٣٩.

سدى من غير مثوبة من حيث لا يشعرون لذلك، فإن العادة إذا استحكمت مع شخص فعلها بدون فكر ولا نظر وربما كانت سيئة فأكلت حسناته وهو لا يشعر.[1]

ويقول صاحب ظلال القرآن: وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله -ﷺ- على كل أستاذ وعالم لا يزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم، يحكى عن أبي عبيد العالم الزاهد الثقة أنه قال: ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

إن دستور الإسلام وهو القرآن الكريم لم يترك صغيرة ولا كبيرة في أي فن من فنون القول والكلام إلا وأتى بها، إنه كتاب كبير يضم بين دفتيه ثلاثين جزءاً تقع في مائة وأربع عشرة سورة، إنه على درجة مطلقة من الفصاحة، إنه يختلف عن جميع كتب البشر، فليس لإنسان قدرة على الإتيان بكتاب في فصاحة هذا الكتاب، إنه كتاب لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا تفكك، مبرأ من كل عيب، منزه عن كل نقص، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾

---

(١) التفسير الواضح جـ٦ صـ٥٦ وما بعدها.

ولقد ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين ومحاوراتهم مع أقوامهم وسوف نذكر ذلك تفصيلا كما سيأتي بيانه.

يقول ابن اسحق الثعلبي: قالت الحكماء إن الله تعالى قص على المصطفى-ﷺ- أخبار الماضيين من الأنبياء والأمم الخالية خمسة أمور أى حكم.(١)

الحكمة الأولى: منها أنه إظهاراً لنبوته -ﷺ- ودلالة على رسالته وذلك أن النبي -ﷺ- كان أميا لم يجلس إلى مؤدب ولا على معلم، ولم يفارق وطنه بمده يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه عالم الأخبار، ولم يعرف له طلب شئ من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان، فنزل عليه جبريل -عليه السلام- ولقنه ذلك، فأخذ يحدث الناس بأخبار ما مضى من القرون وسير الأنبياء والماضيين والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدق بما يوحى الله إليه وإخباره إياه بذلك فآمن به وصدقه، وكان ذلك معجزة له ودليلاً على صحة نبوته ومن كان منهم عدوا معانداً حسده وجحده وأنكر ما جاء به، وقال كما أخبر الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾،قال الله تكذيبا لهم وتصديقا للنبي-ﷺ-: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي

---

(١) قصص الأنبياء المسمى بالعرائس - ابن اسحق الثعلبي - صـ ٢٠

يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

الحكمة الثانية : أنه إنما قص عليه القصص ليكون لـه أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء والصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم، ولتنتهى أمته عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب فتمم الله لـه بذلك معالى الأخلاق فلما امتثل أمر الله تعالى، واستعمل آدب الأنبياء أثنى الله عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]

ولذلك قالت عائشة- رضى الله عنها- حين سئلت عن خلق رسول الله- ﷺ-: (كان خُلُقَهُ القرآن).

الحكمة الثالثة : أنه إنما قص عليه القصص تثبيتاً له وإعلاء بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم، وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم أنه عوفى هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء، وخفف عنهم في الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التى كانت عليهم، كما قال بعض المتأولين في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ إن النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع، والباطنة تضعيف الصنائع، قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ فلما قص الله هذه القصص على

---

(١) سورة القلم : الآية ٤

نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته، وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحد من الأنبياء والأمم، فوصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماه فقيل: يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً).

الحكمة الرابعة: أنه إنما قص الله تعالى عليه القصص تأديباً وتهذيباً لأمته وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم والأعداء وعقابهم ثم ذكر في غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الأعداء، وحثهم على صنع الأولياء، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ونحوها من الآيات، وكان الشيلي - رحمه الله - يقول: في هذه الآيات اشتغل العام بذكر القصص، واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص.

الحكمة الخامسة: أنه قص عليه أخبار الأنبياء الماضيين إحياء لذكرهم وآثارهم، ليكون المحسن منهم في إبقائه ذكره مثبتا له تعجيل جزاء في الدنيا حتى يبقى لذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة.

كما رغب خليل الله إبراهيم -عليه السلام- في إبقاء الثناء الحسن فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ والناس أحاديث يقال ما مات ميت

والذكـــر يحيـــيه وقـــيل ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر.[1]

نماذج من المحاورات كما جاءت في القرآن الكريم:

إن المتصـــفح لكتاب الله تعالى والمتأمل في آياته يجد الإشارة جلية واضحة في ذكر الكثير من المحاورات المتباينة والمتعددة، وقبل أن نبدأ فـــي عـــرض المحـــاورات كمـــا جاءت في القرآن يجب الإشارة إلى أن المحـــاورات أو القصة في القرآن الكريم من الموضوعات التي عنى بها كثير من الباحثين والكتاب في الدراسات القرآنية.

هذا ويمكن أن نقسم القصص القرآني من ناحية الموضوع إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصـــص الأنبياء وقد تضمن هذا النوع منهاج كل رسول في دعوته إلى الله والإيمان به وباليوم الآخر كما جاءت فيه إشارات إلى معجـــزة كل رسول وتأييد الله -ﷻ- له كما تحدثت قصص الأنبياء في القـــرآن الكـــريم عن موقف المعاندين والمتكبرين، وفي هذا الصدد قص الله علينا في كتابه قصص آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويحي وعيسى وداود وسليمان وغيرهم مما بلغت عدته مـــن آيات القرآن الكريم نحو من ألف وخمسمائة آية. ومعنى ذلك أنها تصل قريبا من ربع القرآن.

---

(١) انظر : قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ـ صـ ٢١ وما بعدها.

والذكـــر يحيـــيه وقـــيل ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر.[1]

نماذج من المحاورات كما جاءت في القرآن الكريم:

إن المتصـــفح لكتاب الله تعالى والمتأمل في آياته يجد الإشارة جلية واضحة في ذكر الكثير من المحاورات المتباينة والمتعددة، وقبل أن نبدأ فـــي عـــرض المحـــاورات كمـــا جاءت في القرآن يجب الإشارة إلى أن المحـــاورات أو القصة في القرآن الكريم من الموضوعات التي عنى بها كثير من الباحثين والكتاب فى الدراسات القرآنية.

هذا ويمكن أن نقسم القصص القرآني من ناحية الموضوع إلى ثلاثة أنواع:

الـنوع الأول: قصـــص الأنبياء وقد تضمن هذا النوع منهاج كل رسول فى دعوته إلى الله والإيمان به وباليوم الآخر كما جاءت فيه إشارات إلى معجـــزة كل رسول وتأييد الله -ﷻ- له كما تحدثت قصص الأنبياء في القـــرآن الكـــريم عن موقف المعاندين والمتكبرين، وفي هذا الصدد قص الله علينا في كتابه قصص آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويحي وعيسى وداود وسليمان وغيرهم مما بلغت عدته مـــن آيات القرآن الكريم نحو من ألف وخمسمائة آية. ومعنى ذلك أنها تصل قريبا من ربع القرآن.

---

(١) انظر : قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ـ صـ ٢١ وما بعدها.

النوع الثاني : قصص تتعلق ببعض الأحداث الغابرة وترتبط بأشخاص لم تثبت نبوتهم، وذلك مثل قصة الذين أُخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت وغيرهم.

النوع الثالث : قصص يتعلق بأحداث وقعت في زمن رسول الله-ﷺ-، وذلك مثل الغزوات وحديث الإفك والإسراء ونحو ذلك، ويرى بعض العلماء أن الحوادث التى حدثت في عهد رسول الله -ﷺ- لا تعتبر من قصص القرآن في شئ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ إلا أنى أرى أنه لا مانع من جعلها جزءاً من قصص القرآن، ذلك أن القصص القرآنى ﷻ أزلى سواء فى ذلك ما يتعلق بحوادث غابرة وما حدث للأنبياء السابقين لرسول الله -ﷺ-، وما وقع في عهده هو، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

وقارئ القرآن غير المدرك وغير الواعي عند قراءته للقرآن قد يشعر أن هناك آيات قد تكررت فى سور مختلفة من القرآن، وحقيقة الأمر أن القرآن ذكر تلك المتشابهات فى مواضع مختلفة تختلف فيما بينها، ودليل الاختلاف الواضح هو صدر وعجز كل آية من الآيات المتشابهات.

إن كـل كلمة فى القرآن الكريم جاءت للحال الذى يقتضيها، إن غير الفـاهم للقرآن يتوهم أن المعنى واحد في بعض الآيات ولكن لو تدبرنا الأمور لوجدنا المعنيين مختلفين، فهذا موقف لا يناسبه إلا هذا الأسلوب، وذاك موقف لا يناسبه إلا هذا الأسلوب، ومن أمثلة ذلك قول الحق تبارك وتعـالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1]، ويقول الحق أيضاً في سورة أخرى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[2].

ولنـنظر إلـى عجز الآيتين. في الأولى "نحن نرزقكم وإياهم"، وفي الثانـية "نحـن نـرزقهم وإياكم" نلاحظ أن صدر الآيتين غير متحد، إن الفقرة في الآية الأولى هو الحاصل لذلك فشغل المخاطب برزقه أولا قبل رزق ولده لذلك يطمئنه على رزقه أولا، وبعد ذلك يطمئنه على رزق من يأتي من بعده، أما في الآية الثانية الإملاق إن جاء الولد فمشغوليته هنا برزق أولاده لذلك يطمئنه الحق على رزقهم أولا ثم على رزقه ثانيا.[3]

هـذا ونود أن نذكر الآن بعض أقوال العلماء عن ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم يقول صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن:

(إن عـادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء إليه كررته توكيداً، أو كأنها تقيم تكراره مقام

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥١
(٢) سورة الإسراء : الآية ٢١
(٣) الحوار والمناظرة في القرآن الكريم ـ صـ ١١ وما بعدها.

المقسم عليه أو الاجتهاد فى الدعاء عليه، حيث نقصد الدعاء ويقول متحدثا عن التكرار وأثره وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر، وقد أخبر الله -ﷻ- عن السبب الذى لأجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[1].

ويقول المرتضى عن التكرار الذى وقع في سورة الرحمن: وأما التكرار في سورة الرحمن فإنما حسن للتكرير بالنعم المعددة فكلما ذكر الله تعالى نعمة أنعم بها كرر، ووبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليكَ بأن خولتك الأموال؟ ألم أحسن بأن خلصتك من المكاره؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن منه التكرار لاختلاف ما يكرره به، ثم يقول بعد ذلك فإن قيل إذا كان الذى حسن التكرار فى سورة الرحمن ما عدده من آلائه ونعمه فقد عدد فى ذلك ما ليس بنعمة وهو قوله تعالى ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾

وقوله ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس هذا من الآلاء والنعم، قلنا: الوجه فى ذلك أن فعل

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي -جـ ٣ صـ ١٩

العقـــاب وإن لـــم يكن نعمة، فذكر وصفه والإنذار به من أكبر النعم، لأن فى ذلك زجراً عما يستحق به العقاب، وبعثاً عما يستحق به الثواب.

فإنما أشار بقوله بعد ذكر جهنم والعذاب فيها-إلى نعمة بوصفها- أى جهنم- والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة.(١)

وبعد هذه الإطلالة السريعة والتى تعرفنا من خلالها على أهم ما جاء من أقوال العلماء حول التكرار فى القرآن الكريم حيث يقف القارئ على الفـــائدة المـــرجوة مـــن هذه الصفحات، ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحوار فى القرآن الكريم.

(١)انظر أمالى المرتضى جـ١ ص ١٢٠ وما بعدها.

حوار الله تعالى مع الملائكة

ونجد هذا الحوار قد ذكر فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة، وعلى حسب ترتيبه فقد ذكر فى سورة البقرة وذلك فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١)

فى هذه الآيات يخبر المولى عز وجل عن امتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى قوماً يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلاً بعد جيل.

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ ـ ٣٤

ولـيس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة مـن المفسرين وعزاه القرطبى إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفى ذلك نظر، بل الخلاف فى ذلك كثير حكاه الرازى فى تفسيره وغـيره، والظاهـر أنـه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن مـن هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهمـوه مـن الطبـيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصـال مـن حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.

وقـول الملائكـة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجـه الحسد لبنى آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فـي الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، فقال الله تعالى مجيباً لهم عن هـذا السؤال ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] وقد أشارت سورة الأعراف إلى هذا الحوار وذلك فى قوله تعـالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ

---

(١) انظر فى ذلك تفسير ابن كثير جـ١ ص ٦٩ ومفاتيح الغيب والقرطبى وغيرهم

مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)

وكذلك الشأن نجده فى سورة الحجر وقد أشارت إليه فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١١-١٨.
(٢) سورة الحجر الآيات ٢٨-٤٣.

وقد أشارت سورة الإسراء إلى حوار الحق تبارك وتعالى مع ملائكته وذلك فى قوله جل شأنه ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾ (١)

وكذلك الشأن نجده فى سورة (ص) وذلك فى قوله تعالى ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٦١-٦٥.

وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (١)

والـــذى نستفيده من هذه الآيات أن الحوار دار بين الله -ﷻ- وبين ملائكــته حول خلق آدم والمهمة الملقاة على عاتقه وعلى عاتق أبنائه، ولمـــا كانت الملائكة لا تعرف شيئاً إلا بإذن الله، فالله أدار معهم الحوار ليعلمــنا وليبين لنا فضل بنى آدم على غيره من المخلوقات. إنه يعلم أن من بنى آدم الذى خلقه الله سيكون هناك الأنبياء، وسيرسل فيهم الرسل، وســيكون فــيهم الصــديقون والشــهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولــياء والأبــرار والمقــربون والعلمـــاء العاملون، والخاشعون لله المسلمون له.

إن الله حيــنما يــأتى بالمحــاورات فــى القــرآن الكريم يقصد أن يعلمــنا عــن طــريق التحاور، ما للحوار من جاذبية فى الأداء وروعة فــى الإلقـــاء، فالقــرآن كما ذكرنا يجمع بين الوعظ والإرشاد، والحكمة والتعليم والبلاغة.

إن الله -ﷻ- يعلم كل شئ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فهو يعلم جيداً ما عليه الملائكة والناس أجمعين، ويعلم ما فى الكون كله لأنه خالقه.

والمحاورة الثانية تكمل الموضوع السابق، وتختلف بعض الشئ عن المحــاورة الأولى التى تبين فضل بنى آدم الذى علمه الله الأسماء كلها،

---

(١) سورة ص الآيات ٧١-٨٥.

ومن حلاوة الأداء فى المحاورة السابقة أن قال المولى -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فالله يأتى بالبرهان دائماً فى أقواله وفى هذه المحاورة نجد الله -تعالى- يبين للمؤمنين بطريقة واضحة بداية العداوة بين الشيطان وبنى آدم وكيف أنها ستكون عداوة مستديمة، وستستمر إلى أن تقوم الساعة، فالشيطان يحقد على بنى آدم لأنهم دعوا إلى الإيمان فآمنوا، أما هو فقد صد عن سبيل الله، وتأتى المحاورة كذلك بالوعيد والنذير لكل من يجعل الشيطان أمامه حيث يكون مصيره إلى جهنم وبئس القرار.

وفى المحاورة الثالثة يخبر الله تعالى عن ابليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب:

﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم أقسم بإغواء الله له (قلت) ويحتمل أنه بسبب ما أغويتنى وأضللتنى لأزينن لهم أى لذرية آدم عليه السلام فى الأرض أى أحبب إليهم المعاصى وأرغبهم فيها ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. فقال الله تعالى له مهدداً ومتوعداً ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى مرجعكم كلكم إلى فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.(١) وفى هذه المحاورة بيان من الله تعالى بأنه سبحانه سينصر من ينتصر على الشيطان ويحاربه.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٥٥١.

وفـــى المحاورة الرابعة يبين الحق تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريـــته وإنهـــا عـــداوة قديمـــة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً لـــه، وقال أيضاً ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أى لاستولين علـــى ذريـــته إلا قليلا، ولما سأل إبليس النظرة قال الله لـــه ﴿اذْهَبْ﴾ ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم بجهنم.

إن التأكيد من جانب القرآن على شئ ليس إلا فى مصلحة من يؤمن بالله وبمـــا أنـــزل على نبيه-ﷺ-، إنه يدعونا إلى عدم التكبر وعدم اتباع الشيطان لأنه لبنى آدم عدو مبين.

حوار ابنى آدم عليه السلام

مـــن الحوارات التى ذكرت فى القرآن الكريم، الحوار الذى دار بين ابـــنى آدم علـــيه الســـلام، وهما قابيل وهابيل. وإليه جاءت الإشارة فى قولـــه تعالى :

﴿ واتْـلُ عَلَيْهِـــمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِـــمَا ولَـــمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَـــطتَ إِلَيَّ يَـــدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِـــينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وذَلِكَ جَـــزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِـــرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيـــهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (١)

ففى هذه الآيات بين الله -ﷻ- الحوار الذى دار بين ابنى آدم عليه الســـلام، حيـــث حقد أحدهما على الأخر وبين لنا المولى سبحانه وتعالى مـــن خلالهـــا عاقبة البغى والحسد والظلم فى خبر ابنى آدم لصلبه وهما هابيل وقابيل.

---

(١) سورة المائدة الآيات ٢٧-٣١.

وفى سبب وقوع المنازعة بينهما قولان:-

أحدهما: أن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قربانا، فطلب هابيل أحسن شاة كانت عنده فى غنمه وجعلها قربانا، وطلب قابيل شر حنطة فى زرعه فجعلها قربانا، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل أن الله تعالى قد قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله.

ثانيهما: ما روى أن آدم عليه السلام كان يولد له فى كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته وبعدها هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجها من هابيل فأبى قابيل وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما: قربا قربانا فأيكما قبل قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بان أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قابيل حسداً منه.(١)

وفى هذه المحاورة القرآنية يعلمنا الله تبارك وتعالى أن الإنسان لابد وأن يرضى بما قسم الله له، وألا يتمنى ما عند غيره فلكل منا رزقه المكتوب له كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ

(١) مفاتيح الغيب-فخر الدين الرازى المجلد الخامس ص ٦٥٠ ط/ دار الغد العربى

وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأن الإنسان مهما تمنى ما عند الغير وحسده وحقد عليه فلن ينال كسبا من وراء هذا إلا التعب والحسرة والندامة والخسران في الدنيا والآخرة، كذلك نتعلم من هذا الحوار الوارد في قصة ابني آدم أن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، قال تعالى ههنا حكاية عن المحق ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقال سبحانه وتعالى فيما أمرنا به من القربان بالبدن ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (١)

فاخبر أن الذي يصل إلى حضرة الله ليس إلا التقوى، والتقوى من صفات القلوب، كما قال -ﷺ- "التقوى ههنا" وأشار إلى القلب وحقيقة التقوى أمور:

أحدها: أن يكون على خوف ووجل من تقصير نفسه في تلك الطاعة فيتقي باقصى ما يقدر عليه من جهات التقصير.

ثانيها: أن يكون في غاية الاتقاء من أن يأتي الطاعة لغرض سوى مرضاة الله تعالى.

ثالثها: أن يتقي أن يكون لغير الله فيه شركة، وما أصعب رعاية هذه الشرائط.(٢)

---

(١) سورة الحج الآية ٣٧.
(٢) مفاتيح الغيب ـ المجلد الخامس ـ صـ ٦٥٣

وقيل فى هذه القصة إن أحدهما جعل قربانه أحسن ما كان معه، والآخر جعل قربانه أردأ ما كان معه، وقيل أنه اضمر أنه لا يبالى سواء قبل أو لم يقبل ولا يزوج أخته من هابيل، وقيل كان قابيل ليس من أهل التقوى والطاعة لذلك لم يقبل الله قربانه.

ثم حكى الله تعالى عن قابيل أنه قال لهابيل، لأقتلنك، فقال هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فكأن هابيل قال: لم تقتلنى؟. قال: لأن قربانك صار مقبولاً. فقال هابيل: وما ذنبى؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

وفى هذا الحوار أهمية أخرى غير التى ذكرناها وهى: أن الله عز وجل لم يجعل الناس على درجة واحدة من المنع والبسط وإنما جعل فى الدنيا الفقراء والأغنياء، والعلماء والجهلاء، والأقوياء والضعفاء، ومن كل الأصناف لتكتمل مسيرة الحياة، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ ولننظر عالما كل من فيه أغنياء، أو كل من فيه فقراء، أو كل من فيه جهلاء أو كل من فيه مرضى، كيف يكون حاله؟، وهل يستقيم أمره؟. كلا والله، إن الله خلق الدنيا بمقادير قدرها سبحانه وتعالى ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

كما يدل هذا الحوار على أن كل ذى نعمة محسود، وأن الحسد دأب قديم قدم البشرية، وأن الله سبحانه وتعالى جعله قبيحا وذم فاعله.

يقـول صـاحب كتاب كشف الخفاء: وفى الحقيقة الحسود إنما يضر نفسه بل ربما كان سببا لاشتهار المحسود، وقد سئل بعض الحكماء عن عقاب الحاسد فقال لا أعاقبه أكثر مما هو فيه.(١)

وصدق الإمام الغزالى فى قوله: الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هـو أن تعـرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين، وانه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين.

وقال أما كونه ضرر عليك فى الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته سبحانه التى قسمها بين عباده.

وأمـا كونه ضرر عليك فى الدنيا فهو انك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال فى كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما ضيق الصدر قد نزل بك ما تشتهيه الأعداء لـك وتشتهيه لأعدائك، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، فلا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه لأن النعمة باقية عليه وكل شئ بقدر الله وحكمته.(٢)

---

(١) كشف الخفاء للعجلونى جـ١ ص٤٢٦.
(٢) إحياء علوم الدين للإمام ابى حامد الغزالى جـ٣ ص١٩٠ وما بعدها

والـذى نخلص إليه أن الحسد لـــه بواعث ودوافع نذكرها فيما يلى:-

١-ضعف الإيمان بالنسبة للحاسد، فلو أن هذا الإنسان آمن واعتقد بـــأن مـــا يجـــرى فى هذا الكون من حياة وموت، وغنى وفقر، وصحة ومرض وخير وشر يحدث بإرادة الله تعالى، ما فكر أبدا فى ارتكاب هذه المعصية التى اتصف بها إبليس لعنه الله.

٢-مـــن دوافع الحسد الطمع وحب النفس بطريقة تخرجه عن الحد الذى رسمه الإسلام مثل ما ورد فى قول الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (١)

٣-تعجـــب المرء بذاته. وهذا العجب يدخله فى دائرة الغرور فيرى الـــناس دونه، أو على الأقل الإستسلام لـــه ولو كان محقا. كما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن الأمم السالفة إذ ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ فتعجبوا من أن يفـــوز برتـــبة الرســـالة والوحى والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم، واحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل الله

---

(١) سورة ص الآية ٢٣.

عليهم من هو مثلهم فى الخلقة.

٤-التنافس على أمر بين أثنين أو أكثر فكل منهم يريد أن يصل إلى مراده مهما كانت النتيجة.

٥- خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، ولهذا كان أعظم وصف للمفلحين الذين كان بينهم وبين الشح وقاية، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

(١) سورة الحشر الآية ٩

حوار نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه

لقد كان قوم نوح يعبدون أصناماً متعددة، وينقسمون إلى طبقات عديدة ويملكون أموالاً ومزارع وصناعات، وكانوا يتصفون بصفات الكبر وعدم الخوف من الله تعالى.(١)

لذلك كله دعاهم نبيهم نوح ـ عليه السلام ـ إلى توحيد الله عز وجل والإخلاص له فكان منه الحوار والمجادلة بالحسنى حتى يصل بهؤلاء القوم إلى بر النجاة، ويصور لنا القرآن الكريم هذا الحوار الرائع القائم على الحجة والمنطق وذلك فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم منها ما جار فى صورة هود قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا

---

(١) الدعوة الإسلامية د/ أحمد غلوش صـ١٢٩ ط /الكتاب المصرى.

بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[1]

وكذلك ذكرت سورة الأعراف الحوار بين نوح -عليه السلام- وقومه وذلك فى قوله تعالى:-(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ)[2]

وكذلك نجده فى سورة الشعراء فى قوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ

---

(١) سورة هود الآيات ٢ - ٣٤

(٢) سورة الأعراف الآيات ٥٩-٦٤.

الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (١)

هكذا يبين لنا القرآن الكريم من خلال ما ذكره عن نوح -عليه السلام- حيث كان أول رسول بعثه الله -عز وجل- إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه إنى لكم نذير مبين، أى ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غيره، فكان رد السادة والكبراء منهم لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى الله إليك من دوننا، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك.

وكل محاورة من هذه المحاورات كانت تتحدث عن جانب من جوانب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فالمحاورة الأولى تبين الأسلوب

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٠٥-١٢٠.

الذى اتبعه نوح –عليه السلام– مع قومه، وكيف أنه استمر معهم طويلاً، وقد عبر المولى سبحانه وتعالى عن صبر نوح وجلده فى مواجهة قومه أمام الشبهات التى أوردوها فأجاب عنها بالإجابات الصحيحة الموفقة، فقالوا يـا نـوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان أكـثر حجـة وأقـوى برهاناً من شبههم الواهية إنهم فى قرارة أنفسهم شـعروا أنه لا شك صادق فيما يقول، وصادق فى الإخبار عن ربه، فلما أحسـوا فشـلهم قالوا ﴿أَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ولما كان الأمر بيد الله وحده وليس بيد نوح، فقد قال لهم نوح عليه السلام ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وتنتهى الجولة الأولى من الدعوة إلى الله.

ويعـاود القـرآن الكـريم الحديث عن نوح– عليه السلام– وقومه، إنهم رفضوا دعوته ولم يتقبلوا نصحه وإرشاده، فنرى نوحا عليه السلام فى المحـاورة الثانـية يؤكـد لهم أنه رسول أمين، فرفضوا وازدادوا عنادا وصدوا عن دين الله، وقالوا إنا ﴿لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أى في دعوتك إيانـا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا آباءنا عليها، وهكذا حال الفجـار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، فقال لهم نوح عليه السلام ما أنا ضـال ولكن أنا رسول من رب العالمين رب كل شئ ومليكه، ولا تعجبوا مـن هـذا فـإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم

ولطفا، وإحسانا إليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به شيئا.[1]

وفـــى المحـــاورة الثالثة: يبين القرآن الكريم موقف نبى الله نوح- عليه السلام- مع قومه وكيف حاورهم، وبين لهم أنه لا يريد من وراء دعوته لهـــم مـــالا ولا أجراً ولكنه يبغى وجه الله تعالى، وناشدهم فى غير مرة بـــتقوى الله وطاعـــته إلا أن القـــوم رفضوا قبول دعوته، ولم يستجيبوا لنصحه وإرشاده، ولم يؤثر فيهم جانب اللين والرحمة لدرجة أنهم هددوه بأن يكف عن دعوته وإلا كانت نهايته الرجم فقالوا:

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾

هناك دعا نوح ربه:

﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

فاســـتجاب الله لدعـــوة نبيه وكانت نهاية المطاف بالنسبة للكافرين فأغرق الله الكافرين بكفرهم وضلالتهم، ونجى نوح ومن معه.

وكان لهذا الحوار أهمية نذكرها فيما يلى:-

أولاً: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل-من إقرار الوحدانـــية، والإيمـــان بالرسل، وتقرير المبدأ والمعاد-ليس من خواص قـــوم محمد عليه الصلاة والسلام، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فـــى جميع الأمم السابقة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ص٢٢١ وما بعدها بتصرف

وحكايـة إصـرارهم علـى الجهل والعناد يفيد تسلية الرسول -ﷺ- وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانـياً: أنـه تعـالى يحكـى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكريـن إلى الكفر واللعن فى الدنيا والخسارة فى الآخرة، وعاقبة أمر المحقين إلى الطمأنينة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة، وذلك يقوى قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

ثالـثاً: التنبـيه علـى أنـه تعالى وإن كان يمهل المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

رابعـاً: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة سيدنا محمد -ﷺ-، لأنه -ﷺ- كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تتلمذ على أستاذ،فإذا ذكر هذه القصـص علـى الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى، ودل ذلك على صحة نبوته -ﷺ- (١)

(١) مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي - المجلد السابع - العدد ٤٤ صـ ١٥٨

حوار نبى الله هود ـ عليه السلام ـ مع قومه

كـــان قوم عاد قوما جبارين يعيثون فى الأرض فسادا فكانوا يعبدون الأصنام من دون الله عز وجل وكانوا أهل ظلم وبطش، وقد حكى القرآن عنهم فقال الله تعالى:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (١)

ومـــع هـــذا الكفر والظلم والفساد الذى كان عليه القوم فإن نبى الله هود عليه السلام استعمل معهم الحوار الهادئ والموعظة الحسنة، ولقد ذكر القرآن الكريم هذا الحوار فى مواضع متعددة منها ما جاء فى سورة الأعـــراف قـــول الله تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٨ ـ ١٣٠

وحْدَهُ ونَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

تبين لنا هذه المحاورة القرآنية ما كان من أمر نبى الله هود – عليه السلام – حيث دعا قومه إلى التوحيد الخالص لله تعالى ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وترك عبادة الأصنام، ونصحهم باتباع طريقه السوى، وذكرهم بنعم الله عليهم، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شئ من النعم على الخلق لأنها جمادات. والجمادات لا قدرة لها على شئ أصلا، فهى لا تنفع ولا تضر، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله، وأن لا يعبدوا شيئاً من الأصنام.(٢)

وتبين المحاورة كذلك صدودهم وإعراضهم ومجادلتهم فى أشياء لا تستحق أن يجادل فيها. وذلك لأن هودا – عليه السلام – كما ذكر الأدلة القاطعة والحجج الباهرة الملفتة للنظر والتأمل، لم يكن من القوم جواب إلا التمسك بطريقة التقليد الأعمى فقالوا كما حكى القرآن الكريم ﴿قَالُوا

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٥ ـ ٧٢

(٢) انظر فى ذلك : مفاتيح الغيب ـ المجلد السابع ـ العدد ٤٤ صـ ١٧٤

أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

وقد عرضت سورة الشعراء ما تم بين نبى الله هود عليه السلام وقومه وكيف بدأ حوارهم بكل رفق ولكن القوم أعرضوا وصدوا عن دعوته، قال تعالى: { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ }[1]

وهكذا نرى من هذا الحوار الرائع أن نبى الله هودا – عليه السلام – قد تناول كافة الوسائل الممكنة، فبين دعوة الله برفق ووضح الأدلة التى تؤيد هذه الدعوة، وجعلها أدلة بسيطة تلامس المحسوس عند الناس، ورغب قومه فى نعم عديدة تأتيهم إن آمنوا بخالقهم وعبدوه وحده، وخوفهم من عذاب الله ينزل بهم إن لم يؤمنوا، وكل هذا لم يحقق عند القوم شيئاً، إنهم كذبوا بالفعل ولن ينفع معهم نصح ناصح، ويبين لنا القرآن براعة الأسلوب وبلاغة

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ ـ ١٣٩

التصوير في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ وكانت نهاية القوم أن الله أهلكهم فأرسل عليهم عذابه الذى بدأ بمقدمات عنيفة حيث أجدبت الأرض، واشتد عليهم الحر وانقطع المطر، ثم كان بعد ذلك العذاب الأليم الذى دمرهم فجعلهم الله آية لكل من طغى وتجبر.[1]

(١) انظر : الدعوة الإسلامية ـ صـ ١٣٢ وما بعدها

حوار نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ مع قومه

نبي الله صالح – عليه السلام – رسول من قبل ربه، جاء ليدعو قومه ثمود إلى توحيد الله – عز وجل – إذ كانوا يعبدون الأصنام من دون الله، فدعا – عليه السلام – قومه بكل ود، وبدأ معهم حواراً هادئاً لعلهم يهتدون، وإلى هذا الحوار أشارت سورة الأعراف بقول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ

تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1]

يقول الإمام الرازي: لما أهلك عاداً قام ثمود مقامهم، وطال عمرهم وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم فطالبوه بالمعجزة، فقال: ما تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا في عيدنا وتخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا.

فخرج معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ مواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها، وكانت في غاية الكبر، وكان الماء عندهم قليلا فجعلوا ذلك الماء بالكلية شربا لها في يوم، وفي اليوم الثاني شربا لكل القوم.

قال السدي: وكانت الناقة في اليوم الذى تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتى فتشرب فتحلب ما يكفى الكل، وكأنها كانت تصب اللبن صبا، وفى اليوم الذى يشربون الماء فيه لا تأتيهم، وكان معها فصيل لها فقال لهم صالح: يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه، فذبح تسعة نفر من أبناءهم، ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه، فنبت نباتا سريعاً، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب، فأرادوا ماء يمزجون به، وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيات ٧٣ ـ ٧٩

المـــاء، واشـــتد ذلك عليهم فقال الغلام: هل لكم في أن أعقر هذه الناقة؟ فشـــد علـــيها، فلمـــا بصـــرت بـــه شدت عليه، فهرب منها إلى الخلف فأحاشـــوها علـــيه، فلمـــا مرت به تناولها فعقرها فسقطت، فذلك قولـــه تعـــالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾[1]، وأظهروا حينئذ كفرهم وعـــتوا عن أمر ربهم، فقال لهم صالح: إن آية العذاب أن تصبحوا غداً حمـــراً، والـــيوم الثاني صفراً، واليوم الثالث سوداً، فلما صبحهم العذاب تحـــنطوا واستعدوا.[2] وجاء في تفسير القرطبي، قوله تعالى: "فلما جاء أمـــرنا – أى عذابـــنا – نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ – أى ونجيناهم من خزى يومئذ أى من فضيحته وذلته.

وقوله تعالى: "وأخذ الذين ظلموا الصيحة" أى في اليوم الرابع صيح بهـــم فماتوا، لأنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض: ما مقامكم أن يأتـــيكم الأمر بغتة؟ قالوا: فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعددهم وكـــانوا فـــيما يقـــال اثنى عشر ألف قبيلة، فى كل قبيلة اثنا عشر ألف مقـــاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب، فأوحى الله تعالى على الملك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرها فأدناها من رؤوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش ومات كل ما كان معهم من البهائم، وجعل الماء يفور من تلك العيون من غليانه حيى

---

(١) سورة القمر – الآية ٢٩

(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازى – المجلد السابع – العدد ٤٤ – صـ ١٧٨ وما بعدها.

يبلغ السماء، لا يسقط على شئ إلا أهلكه من شدة حره، فمازالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس فصيح بهم فأهلكوا فأصبحوا في ديارهم جاثمين. أى ساقطين على وجوههم قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت.(١)

وقد أشارت سورة هود إلى هذا الحوار وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾(٢)

يقول الشيخ رشيد رضا: هذه الآيات الثلاث في تبليغ دعوة نبى الله صالح لقومه وردهم واحتجاجه عليهم.(٣)

وحقا لقد بلغ هذا النبي دعوة ربه في وضوح بأسلوب حسن ولين فما كان من القوم إلا أن طلبوا منه بينة على صدق رسالته وعلى أنه نبى من قبل الله سبحانه فقال لهم: هذه ناقة الله لكم آية، أى علامة بارزة على أن الله أرسلنى لكم رسولاً فلا تمسوها بسوء حتى لا يحل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي جـ ٩ صـ ٦١ وما بعدها ـ ط/ بيروت
(٢) سورة هود الآيات ٦١ ـ ٦٣
(٣) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا جـ ١٢ صـ ١٢١

عليكم عذاب الله -ﷻ-.

ولكنهم مع طلبهم الدليل على صدقه عقروا هذه الناقة وعتوا عن أمر رسالته فكان العذاب الشديد لهم من الله -ﷻ-. فأنذرهم ثلاثة أيام يأتى بعدها أمر الله، فأخزاهم الله والله قوى عزيز.

ومن هذا يتضح لنا أن نبي الله صالح -عليه السلام- قام بتبليغ دعوته وإيضاحها على أكمل وجه وأتى قومه بالبينة التى تدل على أنه رسول من عند الله فلما عاندوا ولم يؤمنوا تدخلت السماء فأهلكهم الله سبحانه بعذاب من عنده ونجى الله صالحاً والذين آمنوا معه، وقيل لما سمعوا الصيحة العظيمة تقطعت قلوبهم وماتوا جاثمين على الركب، وقيل بل سقطوا على وجوههم، وقيل وصلت الصاعقة إليهم فاحترقوا وصاروا كالرماد، إن فى ذلك لعبرة.

حوار نبي الله إبراهيم -عليه السلام-

المتأمل في تاريخ دعوة نبى الله إبراهيم -عليه السلام- يجد أن دعوته قد قامت من بدايتها إلى نهايتها على الحوار المقنع المشتمل على الأدلة الصادقة والبراهين القاطعة، فقد استعمل نبي الله إبراهيم -عليه السلام- الحوار وسيلة لنشر الدعوة وإقناع الناس بها، وقد تعددت صور الحوار والمجادلة بالحسنى مع نبي الله إبراهيم -عليه السلام- وبين قومه، ويمكننا أن نذكر في ذلك الصور الآتية:

الصورة الأولى : حوار نبي الله إبراهيم -عليه السلام- مع النمروذ :

يقص علينا القرآن الكريم حوار نبي الله إبراهيم -عليه السلام- مع النمروذ الذى كان ملكاً ببابل وطلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه إبراهيم فقال إبراهيم: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} وفي هذا يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[1]

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٨

إن هـذه الآية تحكي حواراً بين نبي الله إبراهيم -عليه السلام- وملك فـي أيامـه يجادله في الله لا يذكر السياق اسمه، لأن ذكر اسمه لا يزيد مـن العـبرة التـي تمثلها الآية شيئاً، فقال لـه النمرود من ربك؟ فقال إبراهـيم: ربي الذي يحي ويميت، ودليل إبراهيم -عليه السلام- كان في غاية الصحة، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التى لا يشـاركه فـيها أحد من القادرين، والأحياء والإماتة كذلك، لأن الخلق عاجزون عنهما، والعلم بعد الاختيار ضروري، فلابد من مؤثراً آخر غير هـؤلاء القادريـن الذيـن تـراهم، وذلك المؤثر إما أن يكون موجباً أو مخـتاراً، والأول باطل، لأنه يلزم من دوامه دوام الأثر، فكان يجب أن لا تتبدل الإحياء بالإماتة، وأن لا تتبدل الإماتة بالإحياء.(١)

نعم إن الدليل على وجود الله تعالى حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعـد عدمهـا، وعدمهـا بعـد وجودها، وهذه الأشياء دليل على وجدود الفـاعل المخـتار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدهـا، وهو الرب الذى دعا إبراهيم إلى عبادته وحده لا شريك لـه، فعـند ذلك قال المحاج "المناظر" وهو "النمرود": "أنا احي وأميت" ، وذلك أنه أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وأمر بالعفو عـن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإماتة والإحياء في رأيه، إن هذا ليس جوابا لما قال إبراهيم، ولا في معناه لأنه مانع لوجود الصانع، وإنما أراد

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي – المجلد الثالث – العدد ٢٠ صـ ٥٦١

أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه فاعل لذلك، وأنه هو الذى يحي ويميت، ولما رآه إبراهيم مصراً على العناد والمكابرة قال له: "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيي وتميت فالذى يحي ويميت هو الذى يتصرف في الوجود كله في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما تدعى فأت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة بهت، أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة.(١)

وهذا الحوار يعرض على النبي -ﷺ- وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل الذى حاج إبراهيم في ربه، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب.

ويمضي هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه -ﷺ- وعلى الجماعة المسلمة مثلا للضلال والعناد، وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين، وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين.(٢)

---

(١) للمزيد والمعرفة : راجع مفاتيح الغيب للرازي ، وتفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير وغيرهما من كتب المفسرين.

(٢) في ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ـ جـ ١ صـ ٢٩٨ وما بعدها بتصرف.

كان من قوم إبراهيم الذين أرسل إليهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الكواكب والنجوم، وقد قص علينا القرآن الكريم قصص حواره مع هؤلاء وهؤلاء، وقد أشار القرآن الكريم إلى حوار إبراهيم مع القوم الذين عبدوا الأصنام وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٥١ - ٦٧

فـإذا تأملـنا هذه الآيات وجدنا أن نبي الله إبراهيم -عليه السلام- قد قدم لقومه الأدلة الدامغة وناقشهم بصورة فيها الرقى عن الأدلة السابقة للرسـل ولكـنها على كل حال بدأت بسيطة تعتمد على المحسوس، ولا تحتاج إلى دليل مركب أو منطق وتفلسف، لأن ذلك هو الذى كان يناسب بساطة القوم ويتمشى مع فكرهم يوم ذاك.

فحيـن جادل القوم عرفوه أن الأصنام آلهة آبائهم ولن يتركوها، لـم يناقشـهم في حقيقة الألوهية ومدى أحقية الآباء في عبادتها وإنما أشار إلى أن الركون إلى الأصنام ضلال، ثم استعمل الدليل المفيد المعتمد علـى الحـواس فكسـر الأصنام ليثبت لعبدتها أنه لا تنفع نفسها فكيف تؤله وتعبد.(١)

وكـان حواره -عليه السلام- مع عبادة الكواكب والنجوم حواراً هادئاً وفي نفس الوقت كان مفحماً مقنعاً، ولقد صور القرآن الكريم هذا الحوار أيمـا تصـوير فقد صوره بصورة بليغة دقيقة ومحكمة وذلك من خلال سـورة الأنعـام ، يقـول الله تعـالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ

---

(١) الدعوة في عصر النبوة ـ صـ ٧٧

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ)[1]

إن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على حوار هادئ ومقنع وملزم بالحجة القوية، فأسلوب الآيات يوضح أن نبي الله إبراهيم - عليه السلام - لما أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه -عليه السلام- كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه، ولكم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه -عليه السلام- كان مطمئناً بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده، وأن يقبلوا قوله.[2]

وأخذ إبراهيم -عليه السلام- في شرح كل ما يتصل بأمر الدين والهداية من قريب أو بعيد، وبين لهم فضل الله عليهم، وأخذ يبين لهم ما أمره به الله وما نهى عنه إنه الطريق السوي الذي ينجيهم من عذاب الله.

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٥ - ٨٠

(٢) مفاتيح الغيب - للإمام الرازي - جـ ١٣ صـ ٣،

ومن صور الحوارات التى ذكرها القرآن الكريم عن إبراهيم -عليه السلام-، حواره مع أبيه حول ما كان يعبد أبوه آزر من أصنام وآلهة لا تنفع ولا تضر، وفي هذا الحوار أيضاً ما يلفت الأنظار إلى الأدب الرفيع من إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه وإلى حسن مخاطبته بالرغم من أن الأب كان كافراً، وقد أشارت سورة مريم إلى هذا الحوار وذلك في قوله تعالى: ﴿واذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً * إذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِياً * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً * يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِي مَلِياً * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً * وأَعْتَزِلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِياً * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِياً * ووَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِياً﴾[1]

من خلال هذه الآيات يتبين لنا كيف كان حوار إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه حيث قام على الأدب والتواضع واللين معه وهو يدعوه إلى الله

---

(١) سورة مريم الآيات : ٤١ - ٥٠

لأنـــه أولى الناس بأن ينقذه ابنه إبراهيم من الضلال المتردي فيه، لهذا نـــادى فى أبيه أبوته حين قال: يا أبت ليشعره بإشفاقه وخوفه عليه من الوثنية التى ورطه فيها ضلاله.

وبعـــد هذا النداء لم يقرع أباه ولم يشتمه على اتخاذه أرباباً من الحجـــارة يعبدها ولكنه تلطف ورق وسأله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنـــي عنك شيئا؟ وهكذا وصف الأوثان التي يعبدها آزر بصفات كل واحدة منها تكفي لتحكيم اعتقاد آزر فيها:

الأولـــى: أن ذلـــك الوثـــن لا يسمع إذا ناديته أو أثنيت عليه أو تضرعت إليه.

الثانية: أنه لا يبصر خضوع من يخضع وخشوع من يخشع بين يديه لأنه لا يحس ولا يدرك.

الثالثة: أنه لا يغنى عنك شيئاً من الغناء أو النفع في جلب منفعة أو دفع مضرة.

وهكـــذا فـــي أدب جميل وصف الإله الذى يعبده أبوه، فهذا الإله الـــذى لا يســـمع ولا يبصـــر ولا يفرق بين المطيع والعاصي كيف يعبد، والإنسان بما وهب من سمع وبصر وعقل وإدراك كيف يعبد الإله الوثن الـــذى لا يملـــك شيئاً من ذلك، وكيف يكون العابد أعظم نفعاً من المعبود الجمـــاد، وكأنه يريد أن يصل من وراء هذا إلى أن الإله الخليق بالعبادة

هـو الذى يسمع ويبصر ويعلم ويجيب نداء المضطر إذا دعاه وبهذا بين إبراهـيم -عليه السلام- لأبـيه أن تلـك الأربـاب التي يعبدها لا منفعة فيها لعابديها إذا هم أطاعوها، ولا مضرة تحل بهم إذا عصوها.(١)

ثم تلطف ثانياً في دعوة أبيه إلى الحق وأرسل نداءه يا أبت إنى قـد جاءنـي مـن العلـم ما لم يأتك، ولم يشمخ إبراهيم فيصف نفسه بالإحاطة بكل العلوم، ولكنه صور نفسه بالرفيق الذى له خبرة بالدروب والمسالك ليطلب من أبيه اتباعه حتى لا يتوه بين الشعاب المتضاربة في هذا الوجود.

وقـد أخبر إبراهيم أباه أنه قد جاءه شئ من العلم، ولم يأت ذلك الجانـب من العلم أباه، وذلك العلم الذى جاء إبراهيم هو علم الاستدلال علـى طريق الحق، وأن معرفته لـه تجعله كالهادي وكالدليل في مفاوز الحياة.

وكـان الـنداء الثالث: يا أبت لينهاه عن عبادة الشيطان "لا تعبد الشـيطان" لأن الشـيطان عـاص لله "إن الشيطان كان للرحمن عصيا"، تعلـيل لمـا اسـتوجب نهيه عن عبادة الشيطان، ثم ناداه للمرة الرابعة متوسلاً مستعطفاً ليخوفه ما يجره عليه إتباع الشيطان وعبادته من سوء العاقـبة فقـال: "يـا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون

---

(١) التفسير القرآني للقرآن -للأستاذ عبدالكريم خطاب -جـ ١٦ صـ ٧٣٨ -ط/ دار الفكر العربي.

للشيطان وليا" وقد أعلن إبراهيم لأبيه خوفه عليه ليتذكر الأب أن الدافع لموقف إبراهيم في ذلك الحوار إنما هو خوف الابن البار على أبيه، ولم يعبر بالعذاب أو بالعقاب فيقول له: إنى أخاف أن تعذب أو تعاقب ولكنه قال: "أن يمسك" وفى التعبير بالمس حُسن الأدب مع أبيه الضال أملاً في أن ينأى به عن وثنيته. وهكذا نادى إبراهيم أباه أربعة نداءات متوالية لشدة حبه له ورغبته في إبعاده عن الأسباب التى تدفعه فى الآخرة إلى عذاب الله.

وقد التزم إبراهيم -عليه السلام- في حواره مع أبيه جانب الحكمة حين دعاه إلى عبادة الله ونبذ الأوثان، وساق الأدلة لعله يقنع أباه ويشده من مخالب الضلال التى نشبت فيه، وقد تجلى إصرار آزر الذى لم ينفع فيه وعظ ولم يقنعه دليل فيما قال: "قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"، وهكذا في جب وإنكار سأل أزر ابنه إبراهيم أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم، وهذه الآلهة في نظر أزر خليقة بأن تعبد، وبهذا الأسلوب رد آزر ليعلن إصراره على رأيه في ألوهية الأوثان دون حجة يسوقها لمحاولة إقناع إبراهيم اللهم إلا إقراره بأنها آلهته التي قلد آباءه في عبادتها.

وعجيب من آزر أن ينادي إبراهيم باسمه ولا يناديه بالبنوة فيقول: يا بني كما ناداه إبراهيم أكثر من مرة بقوله يا أبت، وكان غيظه

مـن إبراهـيم لرميه آلهته بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني هو الذى حداه إلى التصريح باسمه وبعد هذا الاستفهام التعجبي الإنكاري قابل آزر إشـفاق إبراهـيم وخوفه عليه ووعظه ورقته بالعنف والتهديد والزجر، بـل السـفاهة فـي قولـه الـذى حكـاه القرآن "لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا".

وكما هو الشأن دائماً في أهل الضلال، وأصحاب الشناعات إنه لا يجـئ مـنهم إلا ما هو منكر وشنيع من قول أو فعل، وهذا داء مستحكم فـيهم، لا يجدي معه لين، ولا تخفف من حدته عاطفة رحم وقرابة، فها هـو ذا الأب الضال العنيد يلج في ضلاله، ويستبد به كفره، فلا تند منه قطـرة مـن عاطفة نحو ابنه، ولا يلقى هذا النداء الذى ينادي به بأحب اسـم يسـمعه الآبـاء من أبنائهم: "يا أبت" لا يلقى هذا النداء عنده أذنا تصـغى إليه، ولا قلبا ينفتح لها، وإذا هذا الأب الضال العنيد يرجم ابنه الـبار الرحيم بهذا القول المنكر الغليظ: "يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنـي مليا"، هكذا يقولها يا إبراهيم ولم يقل يا بني، أو يا ولدي ثم يتـبع ذلك بهذا التهديد: "لئن لم تنته لأرجمنك" أهكذا تبلغ غلظة القلب، وعمـى البصيرة، حتى تنزع من صاحبها كل عاطفة وحتى يجد الأب اليد الـتى تطاوعـه علـى رجم ابنه، إلى هذا الحد ينحدر الإنسان إلى ما لا يرضى به الحيوان لنفسه مع أولاده؟

وانظر كـيف اسـتقبل إبراهيم -عليه السلام- هذه الثورة العاصفة المجـنونة وكـيف رد هـذا الحمق الجهول بتلك القولة الكريمة الحانية "سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا"، أى إن ربي كان مكرماً لـي إكـراماً عظيماً، وكما أكرمني ربي سأكرمك بالاستغفار لك، وطلب المغفرة من ربي.(١)

(١) التفسير القرآني للقرآن - للأستاذ/ عبدالكريم الخطيب - جـ ١٦ صـ ٧٣٩ وما بعدها.

إن الطريقة القرآنية في إبراز أنباء الرسل وأحاديثهم وحواراتهم مع أقوامهم، تقتضي أن ترد الواقعة كاملة بأجزائها وعناصرها في موضع ثم يؤخذ من هذه الأجزاء والعناصر بعضها ليساق في سور عديدة في القرآن الكريم، ليؤدي كل جزء أو عنصر دوراً في سياق السورة التي جاءت منها هذه الأجزاء والعناصر، والتكرار في حد ذاته ليس إلا تكراراً في اللفظ والجمل أما المعاني والأهداف فلا تكرار فيها قط.

والمتأمل في حياة سيدنا موسى -عليه السلام- ودعوته يجد أن دعوته لقومه ولفرعون وحواره معهما قد أخذت صوراً متعددة في القرآن الكريم، ويمكننا أن نذكر منها ما يلي:

حواره -عليه السلام- مع قومه :

إن حوار نبي الله موسى - عليه السلام - مع قومه ذكر في القرآن الكريم في مواضع متعددة فقد جاء في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى:

﴿ وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا

رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

فهذه المحاورة القرآنية تخبرنا عن عناد بني إسرائيل مع نبيهم موسى -عليه السلام- وصدهم عن ذكر الله تعالى، إنهم أداروا مع موسى حواراً طويلاً كانوا في غنى عنه عندما أخبرهم أن يذبحوا بقرة، فأخذوا يتشددون في مواصفاتها فشدد الله عليهم، حتى دفعوا فيها ثمناً باهظاً.

فقد جاء أنه كان في بني إسرائيل رجلاً عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليه حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى -عليه السلام- فذكروا ذلك له فقال: "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها

---

(١) سورة البقرة الآيات ٦٧-٧١

فوجدوهـا عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملئ جلدهـا ذهباً، فأخذوها فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقـال: هذا – لابن أخيه – ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا فلم يورث قاتل بعد.(١)

وهـذه المحاورة تعلمنا أن نأخذ ما جاء به الله دون اعتراض أو تساؤل لأن الله تعالى هو العليم الذى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا فـي السـماء، وهـو الحكيم المتصرف بأحوال عباده على وفق حكمته وإرادته، وأن ما أراده الله تعالى وقضاه هو خير للعباد.

وقـد أشارت سورة المائدة إلى حوار من نوع آخر دار بين نبي الله موسى–عليه السلام– وبين قومه، وذلك في قول الله تعالى:

﴿ وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وجَعَلَكُم مُّلُوكاً وآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ ١ صـ ١٠٨

أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1]

ويخبرنا الله تعالى في هذا الحوار ما كان من أمر موسى- عليه السلام- مع بني إسرائيل حيث أمرهم أن يدخلوا إلى بيت المقدس ليقاتلوا أعداء الله، وبشرهم بالنصر والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوه أمره، فذكرهم موسى -عليه السلام- بنعم الله تعالى عليهم فقال: "اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين"

فالآية ذكرت أن الله منّ عليهم بأنواع ثلاثة:

النوع الأول: قوله تعالى: "إذ جعل فيكم أنبياء" لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه فانطلقوا معه إلى الجبل، وأيضاً كانوا من أولاد يعقوب بن اسحق بن إبراهيم وهؤلاء الثلاثة بالاتفاق كانوا من أكابر الأنبياء.

النوع الثاني: قوله تعالى: "وجعلكم ملوكاً" أى جعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم فى أيدي القبط. وقال الضحاك: كانت لهم أموال كثيرة وخدم يقومون بأمرهم، ومن كان كذلك كان ملكاً.

النوع الثالث : قوله تعالى: "وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين" وذلك أنه خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام:

---

(١) سورة المائدة الآيات : ٢٠ - ٢٦

أحدها: أنه تعالى فلق البحر لهم.

ثانيها: أنه أهلك عدوهم وأورثهم أموالهم.

ثالثها: أنه أنزل عليهم المن والسلوى.

رابعها: أنه أخرج لهم المياه العزبة من الحجر.

خامسها: أنه تعالى أظل فوقهم الغمام.

سادسها: أنه لم يجتمع لقوم الملك والنبوة كما جمع لهم.

سابعها: أنهم فى تلك الأيام كانوا هم العلماء بالله وهم أحباب الله وأنصار دينه.(١)

إلا أن القوم لم يستجيبوا لدعوة نبيهم فنسوا نعم الله عليهم، فدعا موسى -عليه السلام- عليهم فعاقبهم الله تعالى بالذهاب في التيه والتمادى في سيرهم حائرين، لا يدركون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين عاماً عقوبة لهم على تفريطهم فى أمر الله، ومات أولئك العصاة في التيه.

حواره -عليه السلام- مع فرعون :

يبين لنا القرآن الكريم من خلال سوره وفي كثير من آياته الحوار الذي وقع بين نبي الله موسى -عليه السلام-وفرعون. قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي المجلد الخامس العد ٣٥ صـ ٦٤٠ وما بعدها.

مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ)[1]

في هذه الآيات الكريمة يخبر الله تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات، إنها مناظرة جمعت بين دفتيها كل الدوافع إلى التناظر ووسائله وأشكاله، إن الطريقة التي تمت بها المناظرة صورها القرآن تصويراً غاية في الإبداع والروعة.

ولقد رُبِّيَ موسى -عليه السلام- في بيت فرعون وترعرع، وبلغ أشده، ثم فر منه وبعثه الله ورسله إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيات ١٠٤ ـ ١١٩

وحـــده والإيمـــان به، ويذهب موسى إلى فرعون ومعه أسلحته ومعداته وعلى رأسها الإيمان بالله الذى أيده بمعجزات باهرات، إنها العصا والتى كانـــت مـــع موســـى -عليه السلام-: "فألقاها فإذا هي حية تسعى" ويده التى جعلها الله بيضاء من غير سوء آية أخرى.

وقـــد بـــدأت الدعـــوة بحوار هادئ، وأخذ موسى -عليه السلام- يدعو فرعون في هدوء، وقال له إن الله أرسلني إليك وأيدني بمعجزة إن شئت رؤيـــتها أتيت بها، فقال له فرعون: "إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين" فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فـــرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموســـى أن يكفهـــا عنه ففعل، "ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين" أى أخـــرج يـــده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض.(١)

فقال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله: "إن هذا لساحر عليم" فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا فـــي أمـــره كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافترائه وتخونوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون.

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ـ جـ ٢ صـ ٢٣٦

إن قـوم فـرعون كانوا أمهر سحرة على مدى التاريخ، ولكنهم بهـتوا لمـا رأوا معجـزات موسى، ووقر في أنفسهم أن ذلك شئ غير عادي وشعروا أن موسى ليس بساحر كباقي السحرة.

انتهت الجولة الأولى دون حسم للقضية، فاتفق الطرفان على أن يأتي موسى وأخوه في يوم آخر ليبدأ الطرفان الجولة الثانية، بل الجولة الحاسـمة، ووافـق موسـى وفرعون على أن يكون يوم عيدهم موعداً للتـناظر والتسـابق علـى أن يجـتمع الناس ليشاهدوا المناظرة ليروا بأنفسـهم لمـن سـتكون الغلبة وها هو القرآن الكريم يصور لنا إرجاء التـناظر إلـى يوم آخر حتى يتم جمع الناس ليكون الأمر أمام أعينهم، ويكـون انتصار موسى -عليه السلام- انتصاراً مؤزراً، وقد كان، والغريب أن فرعون هو الذى طلب التأجيل، وطلب جمع الناس، وأن ذلك كله سيكون في وضح النهار وليس في الليل حتى يكون التسابق واضحاً لا لبس فيه ولا غموض.(١)

بـدأت الجولة الثانية بأن بدأ سحرة فرعون في إظهار براعتهم، وأتـوا بأقصى ما لديهم من سحر، ولكن موسى مؤيد من قبل الله فترك لهـم بـدأ الجولـة فسـحروا أعين الناس وخيل إليهم أن حبال السحرة وعصيهم تسعى، وإذ موسى يلقى عصاه فإذا هى حية كبيرة فالتهمت كل مـا ألقوا، عند ذلك أحس السحرة أن ما جاء به موسى ليس أمراً عادياً

---

(١) الحوار والمناظرة في القرآن الكريم - صـ ٤٦

إنه ولابد مؤيد من قبل الله الواحد القهار فخروا سجداً، يصور لنا القرآن الكريم ذلك تصويراً بليغاً حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1]

إن الإيمان ملك عليهم فؤادهم، فبالرغم من تهديده إياهم إلا أنهم لم يبالوا بهذا الوعيد والتهديد لأنهم علموا أن الله خير وأبقى، يا لها من روعة أداء وقوة إيمان وبلاغة تعبير في قولهم "والله خير وأبقى" إنها دعوة إلى كل من صد عن سبيل الله واتبع سبيل الشيطان لأن يعود إلى حظيرة الإيمان لأنها الأبقى.

(١) سورة طه الآيات : ٧٠ ـ ٧٣

حوار نبى الله عيسى -عليه السلام-

لقد ذكر القرآن الكريم حوار نبى الله عيسى -عليه السلام- في مواضع متعددة منها حواره مع بني إسرائيل، وحواره مع الحواريين، ومنها حوار الله له.

فأما حواره مع بنى إسرائيل فقد جاء في سورة الصف وفيها يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١]

وأما حواره مع الحواريين فقد ذكر في سورة المائدة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ونَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ونَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيَةً

---

(١) سورة الصف الآيات : ٦ ـ ٧

مِّنكَ وارزُقْنَا وأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ ﴾(١)

وأمـــا حـــوار الله تعـــالى لنبيه عيسى فقد جاء أيضاً في سورة المـــائدة عقـــب ذكر الآيات السابقة يقول الله تعالى: ﴿ وإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾(٢)

لـــم يـــترك الحـــق -ﷻ- قضـــية فـــي الكون أو فى الخلق إلا وحسمها، والمحاورات الثلاث التى بين أيدينا تعالج لنا ما قاله النصارى في عيسى بن مريم -عليه السلام-، فتبين لنا المحاورة الأولى أن عيسى ليس إلا رسول من قبل الله -ﷻ-، وها هي البراعة القرآنية تتجلى فى قول "ابـــن مريم" ليخبر الحق تبارك وتعالى أن عيسى -عليه السلام- إنما هو ابن

---

(١) سورة المائدة الآيات : ١١٢ ـ ١١٥

(٢) سورة المائدة الآيات ١١٦ ـ ١١٩

مـــريم وعـــبدالله ورسوله الذى أيده بالمعجزات لتكون دلالة على صدق نـــبوته ورسالته، وأن رسالته مكملة لتوراة موسى الدالان على البشارة بنبـــي الإسلام وخاتم النبيين سيدنا محمد -ﷺ-، وتبين لنا المحاورة أيضـــا موقف بني إسرائيل من دعوة نبيهم عيسى، وموقفهم من رسالة الإسلام.

وتبيـــن لـــنا المحـــاورة الثانية أن الحواريين طلبوا من نبى الله عيســـى -عليه السلام- أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء فقال لهم: "اتقوا الله إن كنـــتم مؤمنين" والمعنى كأنهم لما طلبوا ذلك، قال عيسى لهم انه قد تقدمت المعجزات الكثيرة فاتقوا الله في طلب هذه المعجزات القاهرة، فأجـــابوا وقـــالوا إنـــا لا نطلـــب هذه المائدة لمجرد أن تكون معجزة بل لمجموع أمور كثيرة:

أحـــدها: أنا نريد أن نأكل منها فإن الجوع قد غلبنا ولا نجد طعاماً آخر.

ثانيها: أنا وإن علمنا قدرة الله تعالى بالدليل، ولكن إذا شاهدنا نزول هذه المائدة إزداد اليقين وقويت الطمأنينة.

ثالـــثها: أنـــا وإن علمنا بسائر المعجزات صدقك، ولكن إذا شاهدنا هذه المعجزة إزداد اليقين والعرفان وتأكدت الطمأنينة.

رابعـــا: أن جمـــيع تلـــك المعجزات التى أوردتها كانت معجزات أرضية، وهـــذه معجـــزة سماوية وهى أعجب وأعظم، فإذا شاهدناها كما

عليه من الشاهدين نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل، ونكون عليها من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة.(١)

عند ذلك توجه نبي الله عيسى -عليه السلام- إلى ربه سائلاً إياه فقال: "اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"

تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضاً فقدموا ذكر الأكل وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل. ثم إن عيسى -عليه السلام- لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقوله "ربنا" ابتداء منه بذكر الحق -سبحانه وتعالى- وقوله: "أنزل علينا" انتقال من الذات إلى الصفات، وقوله "تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا" إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث أنها صادرة عن المنعم، وقوله "وآية منك" إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال، وقوله "وارزقنا" إشارة إلى حصة النفس، وكل ذلك نزول من حضرة الجلال، فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون.

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي - المجلد السادس - العدد ٣٨ - صـ ١٩٤

ثـم قال: "وأنت خير الرازقين" وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلـى الخالق ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف، وعند ذلك تلـوح لـك شمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية ونزولها، اللهم اجعلنا من أهله[1].

وجـاءت المحاورة الثالثة لتبدد كل شك وريب في نفس أى قائل بـأن عيسى ابن الله، وهذه المحاورة جاءت لتكون حجة على النصارى الذيـن ادعـوا كذبا وبهتانا أن عيسى وأمه إلهين من دون الله. فها هو عيسـى ابـن مريم يتبرأ مما قاله القوم، ويؤكد أنه عبدالله ورسوله، لم يقـل إلا مـا أمـر به من قبل الله -ﷻ- من الأمر بعبادة الله وحده لا شـريك لـه ربه وربهم وخالقه وخالقهم ورازقه ورازقهم، وهذا توفيق للـتأدب فـي الجواب الكامل "سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لي بحـق إن كنـت قلته فقد علمته" أى إن كان صدر منى هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفى عليك شئ، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، وما دعوتهم إلا إلى الذى أرسلتنى به وأمرتنى بإبلاغه.

(١) المصدر السابق ـ صـ ١٩٦

القرآن الكريم في جملته خاص بالنبى -ﷺ- ولم يخص أحداً سواه من حيث النزول والإخبار به، وهو في نفس الوقت معجزته، وجميع المحاورات التى دارت بين الأنبياء وأقوامهم كانت تحتوى على كل ما يدعوا إليه هؤلاء الأنبياء علاوة على دعوتهم إلى ترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان.

من هنا تعددت محاورات النبي -ﷺ- مع قومه وكثرت صورها ونذكر منها ما يلي:

١- حواره مع المشركين بشأن وجود الله ووحدانيته :

لقد جاد المشركون رسول الله -ﷺ- في شأن دعوة التوحيد، وقال أنصار الشرك والتعدد: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]، قال الدهريون الذين ينكرون وجود الخالق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2].

---

(١) سورة ص الآية : ٥
(٢) سورة الجاثية الآية : ٢٤

وقال الذين يقلدون آباءهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١).

هذه المكابرات من القرشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد وهنا يبين لهم الرسول -ﷺ- القول الفصل في هذا الأساس الوطيد ويقول كما أمره الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢).

في هذه الآية رد على المكابرة الكاذبة التى أعلنها المعاندون فالله هو الذى ينفع ويضر أما آلهتهم فإنها لا تملك شيئا ولا تقدر على فعل أى شئ، وقد تحداهم النبى -ﷺ- في الآية متسائلاً وهل تستطيع الآلهة المدعاة أن تدفع عنى ضرراً قد قدره الله، أو تمنع رحمة أرادها الله، وبعد التساؤل الإنكاري يوضح الحقيقة في أن الله وحده هو الكفيل بكل شئ وهو المعين وعليه يتوكل المتوكلون.

وفي الآية الثانية يبين الله للمجادلين أن الله وحده يكفى في الشهادة على باطلهم، وهو يعلم بكل شئ وعلمه ممتد شامل لكل ما فى السموات والأرض، فمن آمن به نجا وفاز، والذين آمنوا بالباطل وكفروا

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٠
(٢) سورة الزمر الآية : ٣٨

بـــالله أولئك هم الخاسرون وفي سورة المؤمنون يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1]

ففـــي هذه الآيات يسجل الله اعترافهم بأن الله مالك الأرض ومن فيها وهو رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه يغيث من يشاء ولا يغيـــث أحـــد منه أحداً، إذا كانوا يعترفون بذلك فما لهم يشركون ولا يـــتذكرون ولا يخافون أنهم مخدوعون في موقفهم ولا يصح إلا الإيمان والطاعة لله الواحد المتصرف في ملكه وفق علمه وإرادته.[2]

٢ـ حواره مع المشركين بشأن النبوة والرسالة :

لما أظهر رسول الله -ﷺ- الدعوة للإسلام وصدع بالحق كما أمـــره الله تعـــالى، لم يرد عليه قومه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلـــك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، وحدب على رسول الله عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله في دعوته وصدعه بالحق لا يرده عنه شئ، ومضى أبو طالب يحدب عليه ويذود عنه، فلما طـــال ذلك مشى رجال من قريش إلى أبى طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٨٤ ـ ٨٩

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د/ أحمد غلوش صـ ٣٨٦

هـذا ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإمـا أن تكفـه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه.(١)

ورأت قـريش وقـد عز عليها أن يكف النبي -ﷺ- عما يقول بـالإيذاء والفتـنة والسـعى إلـى عمه أبى طالب، بل والإيذان بالحرب والمـنابذة، أن تلجـأ إلـى سياسـة الإغـراء بالجاه أو المال أو الملك والسلطان ظنا منهم أنه ربما يغريه بريق هذا العرض.

فقد روي ابن أسحق فى سيرته عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثـت أن عتـبة ابن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله جالس فى المسجد الحرام: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأعـرض علـيه أمـوراً لعله يقبل بعضها ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الولـيد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله -ﷺ- فقال يا ابن أخي، إنـك مـنا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبـت بـه آلهتهم ذودينهم وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضا، فقال رسول الله -ﷺ-: قل يا أبا الوليد اسمع. قال: يا بن أخى إن كنت تريد بما جئت به

---

(١) سيرة ابن هشام من جـ ١ صـ ٢٦٥

من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا[1] تراه ولا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، حتى إذا فرغ ورسول الله -ﷺ- يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى ثم تلا رسول الله -ﷺ- قول الحق تبارك وتعالى: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من أول فصلت، ومضى رسول الله يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت إليها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين الرجل وبينى ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه

---

(١) رئيا : أى التابع من الجن ، ويقصد به لمس الجن.

ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: وسحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

وأخذ عناد المشركين يزداد ومخاصمتهم تشتد، وقد أرادوا إخراج الرسول وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا اشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق،وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله -ﷺ- :

"ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" قالوا: فإن لم تفعل لنا ذلك فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير - جـ ٣ - صـ ٦٠ وما بعدها، وسيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٢٩٣

بهـا عنا تراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلمسه حـتى نعـرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسـول الله -ﷺ-: "ما أنا بفاعل ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت إلـيكم بهـذا، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينـي وبينكم" قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال لهم رسول الله -ﷺ-: "ذلك إلى الله إن شـاء فعـل بكم ذلك". فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسـألك عمـا سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعـنا بـه ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا بـه، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال لـه الرحمن، وإنا والله لا نؤمـن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا[1].

فلمـا قـالوا ذلك قام رسول الله -ﷺ- عنهم وقام معه عبدالله ابـن أبـي أمية فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله مـنهم، ثـم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فوالله لا أؤمن بك

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، جـ ٣ صـ ٦٢ وما بعدها، ومسند الإمام أحمد جـ ١ صـ ٢٤٣، والمعجم الكبير للطبراني - جـ ١٢ صـ ١٥٤

أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى به وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله -ﷺ-، وانصرف رسول الله -ﷺ- إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه.

وقد عبر القرآن الكريم عن موقفهم هذا من النبي -ﷺ-، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً﴾[1].

من هذه المحاورات التى دارت بين المشركين وبين رسول الله -ﷺ-، تبين لنا اعتراف الكفار وبشكل واضح بعظمة القرآن وإعجازه، وأنه ليس من عند محمد -ﷺ-، وإنما هو من عند الله تعالى، لقد حاول عتبة أن يبين لرسول الله أنه قادر على أن يرضيه بأى أمر من

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ ـ ٩٣

الأمـور التى يرغبها فينثنيه عن غيه، وحاول أن يتفوق على رسول الله فى الحديث، إذ وجه إليه عدداً من الأسئلة فلم يجب النبى -ﷺ- عنها لأنه يعلم تمام العلم ما الذى يريده عتبة.

حـاول عتـبة أن ينتصـر على رسول الله -ﷺ- ظنا منه أن أسـئلته تلـك كفيلة بأن تضيق الخناق على رسول الله -ﷺ-، ولكن رسـول الله المؤيد من السماء معه أقوى دليل وأعظم حجة وأبين برهان علـى صدق دعواه ألا وهو القرآن الكريم، فبمجرد أن قرأ رسول الله -ﷺ- سـورة فصـلت على عتبة حتى يذهل عتبة ويفقد صوابه، ويقفل راجعـاً إلـى أهلـه بهـتة وهزيمـته أمـام رسول الله وحجته القوية القرآن الكريم.

٢ـ حواره معهم حول البعـث :

لمـا أخـبر النبـي -ﷺ- القـوم عن وجود الله تعالى، وأقام البرهان على وحدانيته، ثم أتبعه بذكر نبوته ورسالته، فإن القوم وصفوا رسول الله -ﷺ- بكونه مسحوراً فاسد العقل، فذكروا من جملة ما يدل علـى فسـاد عقله أنه يدعى أن الإنسان بعدما يصير عظاما ورفاتا فإنه يعـود حـيا عـاقلاً كما كان، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل.(١)

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي ـ المجلد العاشر ـ العدد ٦٥ ـ صـ ١٠٩

وقد أشار القرآن الكريم إلى قولهم هذا، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]

أما تقرير شبهة القوم: فهى أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى حوالى العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم، أما الأجزاء المائية فى البدن فتختلط بمياه العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم، وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى، وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى، فهذا هو تقرير الشبهة.

فالمعنى أن القوم استبعدوا أن يردهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتا، وهى وإن كانت منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاما ورفاتا مثل أن تصير حجارة أو حديداً، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٤٩ ـ ٥٢

المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءا من بدن الحي.

أمـــا الحجارة والحديد فمما كانا ألبتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصـــير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان.(١)

والدلـــيل على صحة ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل، إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلا لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر، وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي، وقادر على كل الممكنات، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه، وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومـــات قـــادر على كل الممكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكـــنا قطعا، سواء صارت عظاما ورفاتا أو صارت شيئاً أبعد من العظم فى قبول الحياة وهى أن تصير حجارة أو حديداً.

ولهـــذا قال لهم الرسول –ﷺ– كما أمره ربه أن يخبرهم "قل كونوا حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يكبر في صدوركم" والمراد أن كون الحجـــر والحديد قابلا للحياة أمر مستبعد، فقيل لهم: فافرضوا شيئا آخر ابعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلا للحـــياة، فـــإن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أى صفة فرضت،

---

(١) مفاتيح الغيب – المجلد العاشر – صـ ١١٠

وأى حالة قدرت وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فإن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها.

وهكـذا نرى القرآن الكريم بلغ من سمو البيان أقصاه، وبلغ من قمـته أعلاهـا وأخـص مـا تتجه إليه سنة التدرج من المحسوس إلى المعقول، ومن الشاهد إلى الغائب في بيان يأخذ بالألباب، ويقطع السبيل على كل مجادل مرتاب.

هـذا ويلاحظ القارئ للقرآن الكريم المتتبع لأحكامه المتبصر في أدلـته أن جـدل القـرآن الكريم يتجه أحيانا كثيرة إلى إرشاد المجادل، والأخـذ بيده إلى الحق وتوجيه نظره إلى حقائق الأشياء، وما في الكون مـن عـبر كما ترى فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[1]

---

(١) سورة ق الآيات ٦ ـ ١١

وفـــى هذا ترى الجدل متجها كل الاتجاه إلى الإرشاد والأخذ بيد الســـامعين إلى الحقيقة، وأحيانا يبتدئ بإلزام المجادل وإفحامه ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة إذ يبينها له واضحة كاملة.

ويلاحـــظ أن القرآن الكريم في الجدل الذى يلزم الخصم ويفحمه يجيئه من أقرب الطرق وأشدها إلزاما.[1]

(١) تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة ـ صـ ٦٩ وما بعدها

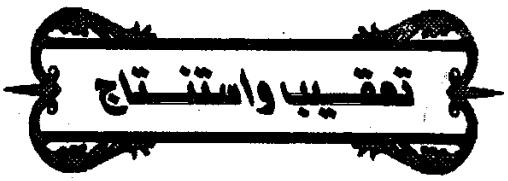

تعقيب واستنتاج

مما تقدم نرى أن الإسلام جعل للحوار والمناظرة أهمية كبرى لما لهما من أثر في النفوس، ووقع في القلب، مما يجعل النفس البشرية تنزل عن كبريائها وعنادها، فإن الرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١)

هذا وقد وصل البحث إلى منتهاه، وإتماما للفائدة يمكننا أن نستلخص منه النتائج الآتية:

أولاً: أرسى الإسلام القواعد والأسس التى يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله تعالى، على أساس من الرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) سورة النحل ـ الآية ١٢٥

ثانياً: لابد من مراعاة أحوال المخاطبين وظروفهم والطريقة التى يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها.

ثالثاً: بيان فضل الله تعالى على بنى آدم وتكريمه على غيره من المخلوقات حيث أمر الملائكة بالسجود له – سجود تكريم – وعلمه الأسماء كلها. وجعله خليفة في الأرض، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

رابعاً: يمتاز الحوار فى القرآن الكريم بأن له جاذبية فى الآراء وروعة فى الإلقاء، حيث جمع بين الوعظ والإرشاد والحكمة والتعليم والبلاغة والفصاحة والبيان.

خامساً: أن الحوار وتقرير الدلائل وإزالة الشبهات هو منهج الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وأن التقليد والجهل والإصرار على العناد والمكابرة بالباطل حرفة الكفار والجهلاء.

سادساً: الحوار في الإسلام يعلمنا كيف نستقبل الثورة العاصفة المجنونة بصدر رحب وافق واسع، وكيف نرد حمق الجهول بالتى هى أحسن وبالقول الكريم الحانى، أم لم يقل نبى الله

إبراهيم -عليه السلام- لأبيه "سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيا" والله علمنا أن لنا فيهم أسوة حسنة.

سابعاً: تبين لنا من دراسة هذا الموضع أيضاً أن الحوار كان منهج الأنبياء، وأن دعواتهم لإصلاح البشر في حالهم ومآلهم إنما كانت عن طريق الحكمة المثلى وإقامة الحجة والبرهان مع الرفق واللين والحوار والمواجهة ولم تكن أبداً دعوات الأنبياء ثورة من الثورات الانقلابية كما يزعم الأفاكون الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف.

هذا ما تيسر لي من البحث والدراسة، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.

وفى الختام أتوجه إلى الله العلى القدير أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به كل من قرأه وسمعه، فإن كنت أصبت فهو القصد فى عملى والحمد لله في البدء والختام، وإن كنت أخطأت أو قصرت في شئ فأعتذر إلى الله تعالى وأستغفره عما وقعت فيه من ذلل من غير قصد، وأطلب منه العفو والغفران.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

والله -ﷻ- أجـل وأعلم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور

أحمد فهمي على محمد

المحتويات

١- مقدمة
٢- مفهوم الحوار والمناظرة
٣- أدب الحوار في الإسلام
٤- نماذج من المحاورات كما جاءت في القرآن الكريم
٥- حوار الله تعالى مع الملائكة
٦- حوار ابني آدم عليه السلام
٧- حوار نبى الله نوح عليه السلام مع قومه
٨- حوار نبى الله هود عليه السلام مع قومه
٩- حوار نبى الله صالح عليه السلام مع قومه
١٠- حوار نبى الله إبراهيم عليه السلام
١١- حوار نبى الله موسى عليه السلام
١٢- حوار نبى الله عيسى عليه السلام
١٣- محاورات ومناظرات لسيدنا محمد عليه (ﷺ)
١٤- تعقيب واستنتاج